ثقافة

سيظل درويش بيننا ما بقيت الكلمة وبقي الشعر

د . عبد العزيز المقالح

بداية أعتقد أن غياب الشاعر العربي الكبير محمود درويش، لم يكن خسارة للشعر العربي فحسب، بل كان كذلك خسارة للشعر الإنساني كله، فقد كان محمود شاعرا عربيا إنسانيا في شعره وفي مواقفه. وعظمة هذا الشاعر الكبير تتجلى في أنه كان شاعرا بكل ما في الكلمة من معان إبداعية وأخلاقية، فقد كان شاعرا في سلوكه وفي طريقة تعامله، قبل أن يكون شاعرا في كتابة القصيدة في أرقى مستوياتها، موقفا وفنا. لم يحاول محمود في أي يوم من الأيـام، أن يخوض فيما خاض فيه الآخـرون، من خلافات وافتعال لمعارك وهمية، لذلك فقد احتفظ بمكانته في القلوب، شاعرا وإنسانا، واستطاع أن يكون مدرسة قائمة بذاتها في حياتنا الأدبية. عرفته في بداية السبعينيات، واستمرت علاقتي الحميمة به حتى الآن. كان دائم السؤال عن أصدقائه، أكثر مما يسألون عنه، لا يكف عن مهاتفتهم والسؤال عن أحوالهم، وتلك ميزة نادرة من الكبار.

لم يمت محمود وإنما ماتت همومه وآلامه التي تصاعدت في الآونة الأخيرة، جراء ما يحدث بين الأهل من اقتتال لا مبرر له سوى الجري المحموم وراء سلطة موهومة، ووعود تتبخر كالدخان في الهواء أو كالسراب في الصحراء. محمود أيها الشاعر الإنسان سلام عليك، وستظل بيننا وفي حياة أمتك ما بقيت الكلمة وبقي الشعر.

■ محمود درويش

عائد إلى الجليل؟!

كأنّ إرادة تراجيدية غاشمة، أشبه بعاصفة عاتية عمياء، أخذت في الآونة الأخيرة تقوده عنوة إلى قَدَرَيْن لا ثالث لهما: إمّا أن يسير إلى الموت بقدميه، ساعياً إلى ملكوته، طامعاً في هزيمته للمرّة الثالثة (بعد موتَيْن سريريين، سنة 1984 وسنة 1998)؛ أو أن ينتظر ـ مكتوف اليدين، متعب القلب، واهن الشرايين ـ مجيء الموت إليه، ساعة تشاء الإرادة الغاشمة. كانت هذه حال محمود درويش وهو يقلّب الأمرين، والأمرّين، مع نفسه أوّلاً، ثمّ مع أطبائه ثانياً، ولكن مع أصدقائه أيضاً، حتى مَن كان بينهم لا يميّز بين البطين الأيسر والشريان الأبهر. أمّا قلب الشاعر، العاكف على أكثر من مخطوط شعري قيد الإنجاز، فقد كان يتقلّب على نار غير هادئة أبداً.

صبحي حديدي

فريق أول من الأطباء اعتبر أنّ درويش، بعد أن توسّع قطر الأبهر عنده إلى أكثر من 6،5، صار مثل رجل يحمل في بطنه لغماً قابلاً للإنفجار في أيّة لحظة، في أيّ يوم أو أسبوع أو شهر، ولا مناص بالتالي من جراحة دقيقة لتبديل الأجزاء من الشريان. فريق آخر، على رأسه ذلك الجرّاح الفرنسي العجوز المعلّم الذي كان وراء المآل السعيد لمحنة 1998، كان شديد التحذير من مخاطر العمل الجراحي، وكان يتوجس خيفة من المضاعفات الخطيرة التي قد تطرأ دون حسبان، ودونما قدرة كافية على ضبطها، حتى بعد نجاح العملية. والحال أنّ درويش استقرّ على الخيار الأوّل، وبعد ظهيرة 6 آب (أغسطس) الجاري كان قلبه قد أنجز نصف انتصار بعد نجاح الجراحة، وتوجّب أن يكتمل الإنتصار ـ الثالث، على امتداد ربع قرن ـ عندما يغادر الشاعر غرفة العناية الفائقة، بشريان أبهر متجدد. تبادلنا زفّ البشرى، نحن حفنة أصدقائه ممّن تحتّم علينا أن نقبض على جمرة السرّ في ما جرى ويجري في مشفى <ميموريال هيرمان> في هيوستون، تكساس، فكانت الدقائق تحرقنا قبل أن نحرقها. ثمّ تعاقبت الأنباء الصاعقة، جلطة خلف أخرى، وانهياراً بعد آخر، واضمحلالاً لفسحة الأمل الضئيلة مقابل تضخّم السؤال القاتل: هل غادرنا، حقاً، مرّة وإلى الأبد؟ وهل انقطعت، نهائياً، مشروعاته الشعرية التي تضاعفت في السنوات القليلة الماضية، وتزاحمت: غزيرة في الكمّ، دائبة التجديد في الكيف، تأسيسية بقدر ما هي تراكمية، تنشقّ عمّا قبلها دون أن تقطع معه أو تنقطع عنه، مدهشة في استفزازنا بقدر مصالحتنا؟ وهل كانت تلك الأخيرة، قبل أن يطير صباحاً إلى هيوستون، ختام لياليه الباريسية حقاً؟ آخر عشاء، وآخر نبيذ، وآخر فنجان قهوة، وآخر نكتة، وآخر مخطوطة، وآخر مصافحة؟ بعد أن تأكد نبأ رحيله، خرجت أسير على غير هدى كحاطب ليل، أصارع إغواء استرجاع تفاصيل تلك البرهة من خريف 1976، حين تعرّفت عليه للمرّة الأولى، في بيت متواضع لصديق مشترك كان يسكن مخيّم اليرموك بدمشق.

هل تلاشت التفاصيل لأني أستثقل اليوم ما كنت قد وجدت كلّ السراح في قوله آنذاك: أنّ مشروع محمود درويش الشعري ينبغي أن يكون أعلى، لأنه أرفع وأغنى وأكثر وعداً، من أن يؤسر في تسمية واحدة، ملتبسة، هي (شعر المقاومة)؟ كان ذلك الطرح أقرب إلى الهرطقة آنذاك، وكان في الحدّ الأدنى استفزازياً لشاعر المقاومة الأجمل، النجم اللامع المدلل النزق السابح في الأضواء.

وكنت أحسب الرأي ذاك فاتحة خصومة أبدية، حتى العام 1988 حين التقيت بالراحل في باريس، فأدركت أنّ العكس كان هو الصحيح: لم يجد الإستفزاز وقعاً حسناً في نفسه فحسب، بل لقد استطابه لأنه أصلاً كان محور تفكيره في تلك السنوات التي كانت حبلى بأكثر من محمود درويش واحد: قلق في موضوعاته وأشكاله وأدواته، عارم التوق إلى التحديث، عازف أكثر فأكثر عن ذلك (الحبّ القاسي) الذي ناشدنا أن نقلع عنه في تثمين شعره خاصة، و>شعر المقاومة عامة. كذلك أدركت، وبرهنت السنوات المتعاقبة، أنّ ذلك اللقاء الأوّل كان عتبة صداقة كبرى، في ما يخصّني على الأقلّ، سوف تتجاوز بكثير صلة الناقد بالمبدع، بل لعلّ هذه الأخيرة كانت في نهاية المطاف آخر مشاغلنا. وهكذا فإنني، في فقده اليوم، لا أخسر فقط شاعراً كبيراً كنت وأظلّ أعتبره أعلى ذروة بلغها الشعر العربي في العقود الثلاثة الأخيرة، وأحد أكبر شعراء الإنسانية المعاصرة، بل أخسر كذلك صديقاً كبيراً، وأخاً قريباً لم تلده أمّي. وإذا كانت واقعة مخيّم اليرموك قد راوغت ذاكرتي، فإني في المقابل لم أفشل في استرجاع تفاصيل تلك البرهة الباريسية الأخيرة، حين كنت أودّعه على باب فندق الـ (ماديسون) في حيّ الـ (سان جيرمان)، صحبة أكرم هنية، رئيس تحرير صحيفة (الأيام) الفلسطينية ورفيقه في الرحلة إلى هيوستون. ذكّرته بأمر يجب أن يستكمله عند مروره في باريس عائداً إلى عمّان، فأجابني بابتسامة غامضة: (هذا إذا رجعنا)! وأعترف، هنا، أنني تعاملت مع إجابته بخفّة المطمئن، لأني كنت على ثقة مطلقة بأنه عائد، أكثر عافية وحيوية؛ وكان حرياً بي أن أتلمّس ما انطوت عليه نبرته من نيّة في اعتماد الخيار القدري الأوّل: أن يسير إلى الموت بقدميه، مردّداً تلك الفاتحة الشهيرة من إحدى أجمل قصائده: (نحبّ الحياة/ إذا ما استطعنا إليها سبيلا).

وبين استفاقة من تخدير ودخول في غيبوبة، خلال تلك الساعات المتثاقلة التي أعقبت نجاح العملية وانهيار جسده وظيفة بعد أخرى، هل أسعفه اللسان لكي يوصي، مجدداً وبحزم، أن يكون الجليل مثواه الأخير والوحيد؟ وهل امتلك من اليقظة ما يكفي لكي يتلو ذلك المقطع الختامي من قصيدة (جدارية)، مطوّلته العبقرية التي كانت ثمرة محاورة الموت سنة 1998: (أمّا أنا ـ وقد امتلأتُ بكلّ أسباب الرحيل ـ فلستُ لي أنا لست لي أنا لست لي...).

سينمائيات

عن صورة محمود درويش السينمائية

■ لقطة من الفيلم التسجيلي (الارض تورث كاللغة)

دبي / متابعات :

مضى محمود درويش دون أن يرمي تلويحة وداع على أحد. كان رحليه مفاجئا، غير متوقع، وعلى غير موعد.. يأتي الخبر مفاجئا، مباغتا وصاعقا.. لم يتهيأ له أحد، على الرغم من خبر خضوعه لعمل جراحي في القلب. لقد فعلها درويش مرتين من قبل. دخل في سراديب الموت، وعاد منها بقصيدة. هزم الموت، ومدّ له لسانه، قائلا: «هزمتك يا موت الفنون جميعها» !..حتى اعتقدنا أنه سيفعلها مرة ثالثة.. وكنا بانتظار قصيدته الجديدة، لا موته..

يرحل محمود درويش.. وهو الذي عاش من رحيل إلى رحيل.. مفردا كان.. تطويه المنافي، والعودات القلقة.. صنع «ظاهرته الشعرية» الفريدة، ما بين حيفا، وبيروت، وتونس وباريس.. ما بين قبرص، وموسكو، والقاهرة، وعمان، ودمشق، ورام الله.. وعاش على مسافة مرسومة من كل شيء!..

ومحمود درويش الرمز والأيقونة.. الإنسان والشاعر.. يأخذ صورته الأخيرة معه، ويترك لنا ظلالا منها.. ليست تلك الظلال التي رآها ذات يوم في «جواز السفر».. بل ظلال الصورة السينمائية الوحيدة التي صيغت عنه، وهو الذي كان متوفرا، وربما جاهزا..

صورة محمود درويش السينمائية الوحيدة، رسمتها المخرجة الإسرائيلية سيمون بيتون، في فيلمها التسجيلي الشهير «الأرض تورث كاللغة» 1998. وربما كان غريبا أن أحدا من السينمائيين الفلسطينيين والعرب، على السواء، لم يبادر إلى رسم صورة سينمائية لهذا الشاعر الكبير، الذي ملأ الدنيا، وطاف الآفاق.. لقد اكتفوا باستلهام قصائده، وصوته.. فربما أن أحدا منهم لم يكن يفكر بأن محمود درويش سوف يموت «عمّا قليل»!.. ولعل درويش ذاته كان يبدو لهم أبعد ما يكون عن الموت، حتى بعد أن دخل مبضع الجراح إلى قلبه وشرايينه..

لن ننكر هنا أبدا، محاولة المخرج العراقي محمد توفيق، في عمل تلفزيوني حمل عنوان «سجل أنا عربي» عام 1986، وفيه حوار مطول مع الشاعر، إضافة إلى مقتطفات من أمسياته الشعرية، خاصة تلك التي كان يحييها في تونس.. ولا ذاك العمل التلفزيوني المبكر، والذي حمل عنوان «محمود درويش شاعر الحرية»، والذي أنتجه تلفزيون لبناني عام 1993، في جزأين يمتدان طوال 200 دقيقة.. ولا البرامج التلفزيونية هنا وهناك.

لكن يبقى أن المخرجة سيمون بيتون، وفي إطار اهتمامها بالفيلم الوثائقي التسجيلي، استطاعت إقناع الشاعر محمود درويش بالاستسلام لكاميرتها، والانهمار أمام تلك الكاميرا بفيض من البوح والاعترافات، من الحديث المستفيض، بدءا من حياته الشخصية، وتجربته الفردية، وصولا إلى تجربته الثقافية الإبداعية، وتجربته السياسية الرسمية وشبه الرسمية.

ربما كان لدى سيمون بيتون ذاتها، ما أقنع محمود درويش بقبول تلك التجربة المغامرة، فهي مزيج فريد من مفردات تشكل جميعها هويتها. إنها اليهودية المولودة في الرباط، والإسرائيلية النافرة من سياسات الدولة وممارساتها، والفرنسية الطامحة للمساهمة عبر أفلامها في فهم أفضل للصراعات الدائرة في المنطقة: (أمهاتنا من المتوسط 1982، اجتماع بين الحربين 1983، الأصوات الشهيرة في الأغنية العربية/ أم كلثوم 1990، فلسطين: تاريخ أرض 1993، محادثة شمال جنوب 1993، محمود درويش: الأرض تورث كاللغة 1998، القنبلة 1999، عزمي بشارة 2001، الجدار 2004).

عبر قرابة 60 دقيقة، تنسج سيمون بيتون فيلمها بحرفية ومهنية واضحة، تستفيد من موضوعها، الشاعر والإنسان الغني والمتعدد الوجوه والتجارب، المتنقل بين الأمكنة وفي الأزمنة، ومختلف الحالات والانفعالات.. تبدأ مع درويش من لحظة ذاكرة طفلية، وتسلط كاميرتها على الورقة والقلم، اللذين بتلاقحهما خلق محمود درويش عالمه الشعري الفذ.. تبدأ معه من أحد المطارات التي أضحت علامات في حياة الشاعر الجوال، المتنقل من عاصمة إلى أخرى، دون بلاده..

ما بين باريس وتونس، مرورا بعمان، وإلى حافة فلسطين، عند جبل نيبو، قبيل العودة الناقصة، إلى جزء من أرض فلسطين، ترافق الكاميرا محمود درويش، وهو يمر بحديث فياض على الكثير من محطات حياته، وينثر المزيد من حكمته التي استقاها بلغة الشاعر من استثنائية الحياة التي عاشها.. تنتقل معه إلى رام الله، وتعود هي وحدها بكاميرتها، وبلقاء مع خال الشاعر، إلى قرية البروة، التي بقيت نائية عنه، على الرغم من قربها المكاني الشديد..

سنجد خال الشاعر محمود درويش يقف بين أنقاض قرية البروة، ويستعيد من خلال الذاكرة تفاصيل المكان، ارتباطا بالشاعر، فيقول: «هنا الغرفة التي ولد فيها محمود درويش.. هذا هو البئر الذي كان والده يسحب منه الماء».. أي إنه البئر ذاته الذي كان يرى فيه الفتى محمد درويش قمريه. وكأن الصورة التي تقدمها بيتون في فيلمها تحاول أن توازي ما قاله محمود درويش عن بئر والده، وعن القمرين اللذين كان يراهما، وهو فتى غرّ، في البئر..

ثنائية المكان/ اللغة، البادية في عنوان الفيلم، تجد لها مساحة واسعة في حياة الشاعر محمود درويش، فهو الذي امتلك ناصية اللغة، حاول جهده أن يعيد صياغة المكان لغويا، أعاد كتابة حكايته منذ كنعان الأول، وحكى صراعاته مع الغزاة الذين مروا على سنابله، وانتهى إلى أن «فلسطين أم البدايات، أم النهايات».. في محاولة باهرة لتضافر المكان، وانجداله بالزمان، فتتكرر حكاية الآنا والآخر، القريب والغريب، في توارث يبدو أنه لا ينتهي.

ستترك سيمون بيتون لموضوعها/ الشاعر، أن يقول ما يشاء، وإذ تسأله بالقليل من الكلام، فإنما في غاية تسعى إلى استكشاف المزيد من عوالمه الشخصية والحميمية، وطقوسه الحياتية، وراء الشعر، ووراء الصورة الإعلامية، والكتابات الأنيقة.. فهي تعرف أن محمود درويش كان حالة جدالية، من غير السهل والبسيط قراءتها، والتعرف إلى أحد وجوهها، والاكتفاء بذلك..

لهذا يمكننا القول إن فيلم «الأرض تورث كاللغة» استطاع النجاح في تلمس بعض جوانب صورته.. ولكن بقي الكثير من ملامح الصورة، أو ظلالها، رهن الاقتراب منها، ملامستها، قراءتها، وإدراكها.. وليس من المبالغة في شيء القول إن محمود درويش ظاهرة، ليس من السهل إنجابها، أو إنتاجها، مرة أخرى.. وربما سيحتاج الفلسطينيون، والعرب، إلى وقت طويل لفعل ذلك.

أعدّوا له الأرض كي يستريح فقد أحبّها حتى التعب!

حسام الدين محمد

مات محمود درويش.

اغمض عينيه الجميلتين ومشى في غمامته البيضاء.

مات عاشق الحياة الكبير لأنه لم يرد ان يجلس منتظرا الموت.

أعرف ان الزمان لا يحالفني مرتين قال ذات قصيدة. لكن الزمان حالفه مرتين فأراد ان يلعب النرد معه للمرة الثالثة فغلبه.

هل يموت الشاعر؟ مرّرت هذا السؤال اليه بعد عمليته الاول وكنا مجتمعين في استديو الام بي سي بلندن فحدّثنا عن لون الموت الابيض والغمامة التي دخل فيها وغفى.

كتب درويش عن ميتات اصدقائه كما لم يكتب احد وسألهم ان لا يموتوا وان ينتظروا سنة واحدة فقط: سنة اخرى فقط تكفي لكي اعشق عشرين امرأة وثلاثين مدينة.

شهداء فلسطين الكبار كانوا احبابه وكتب اجمل قصائده فيهم من راشد حسين ال ماجد ابو شرار وعز الدين القلق ومعين بسيسو... وصولا للشهداء المجهولين. كانت القصائد ايقافا للموت وحراسة للحياة والا كيف نفهم قصيدته في الشاعر العراقي سعدي يوسف (أطال الله

عمره): أعد لأرثيك عشرين عاما من الشعرب غير كونها تعويذة من شاعر لصديق له ضد الموت؟ الموت ضرب من الغدر قال مرة في رثاء له لحمادي الصيد وكونه لاعب الموت وتهرب منه مرتين فقد قال عنه: أما الموت فلا شيء يهينه كالغدر: اختصاصه المجرّب.

هل طلب محمود اسنة اخر فقط في حجرة العمليات التي أقلّته ال موعده كما قال في كتابه في حضرة الغيابب: افلأذهب الى موعدي فور عثوري عل قبر لا ينازعني عليه احد من اسلافي.

هل رأى ما أراد من البحرب في اهبوب النوارس عند الغروبب؟ مات كاتب الملحمة الفلسطينية الاكبر التي رافقته منذ تهجيره من قريته في شمال فلسطين وعودته اليها ثم اوديسته الطويلة بين البلدان والعواصم.

مات اكثر الشعراء العرب اصالة ولا اعرف ان كان النقاد لاحظوا خط الديمومة في الشعر العربي من امرئ القيس مرورا بالمتنبي ووصولا اليه.

مات شاعر الحداثة الكبير الذي كانت الحداثة بالنسبة اليه علاقة باللغة والارض والواقع والعالم ولم تكن بحثا عدميا عن اللامعنى والانقطاع في الصيرورة الأصيلة للمكان والزمان والناس: ان نكون عبثيين او لاعبين او ساخرين لا ان نرد عل اللامعن بلامعنى قال مرة في حوار معه.

لعل اهم مزايا محمود درويش في اعتقادي انه استطاع ابتداع المعادلة الاعجازية لشعر عميق وعظيم ومليء بالفذاذة الفلسفية والسخرية السوداء والنحت الرائع على اللغة في الوقت الذي كان قادرا دائما على الوصول للجمهور العام للشعر. كانت امسيات محمود درويش الشعرية مناسبات عامة ترسل كما لو كانت طاقة كهربائية عالية مسّا روحيا عاليا لم تكن لتجده الا عند الشعراء ذوي القامات الكبرى في التاريخ.

ولأنه شاعر كبير وذو رؤيا فقد شاهد موته في قصيدته لاعب النرد التي نشرها في االقدس العربي قبل أسبوع فقال: مَنْ أنا لأخيِّب ظنّ العدم؟ مَنْ أنا ؟ مَنْ أنا ؟ لم يخيّب الشاعر فم الفناء الفاغر لكن جسده اخلى المكان لشعره الذي سيفتح الآن صفحة حياته الخاصة التي لا يمكن للعدم ان يطالها.

القدس العربي كانت عل علاقة شديدة الخصوصية بالشاعر الراحل الذي اهداها الكثير من اجمل قصائده.

عن صحيفة ـ القدس العربي

آخر قصيدة كتبها ولم تكتمل قبل الرحيل

سيناريو جاهز

شعر / محمود درويش

في البداية ننتظرُ الحظَّ ...
قد يعثر المنقذون علينا هنا
ويمدّون حَبْلَ النجاة لنا
فيقول : أنا أوّلا
وأقول : أنا أوّلا
ويشتمني ثم أشتمُهُ
دون جدوى ،
فلم يصل الحبْلُ بعد ... /
يقول السيناريو :
سأهمس في السرّ :
تلك تُسمّي أنانيَّة المتفائل
دون التساؤل عمَّا يقول عَدُوِّي
أنا وَهُوَ ،
شريكان في شَرَك واحد
وشريكان في لعبةِ الاحتمالات
ننتظر الحبل ... حَبْلَ النجاة
لنمضي على حدَة
وعلى حافة الحفرةِ - الهاويةْ
إلي ما تبقى لنا من حَياة
وحرب ...
إذا ما استطعنا النجاة !
أنا وَهُوَ ،
خائفان معاً
ولا نتبادل أيَّ حديث
عن الخوف ... أو غيرِه
فنحن عَدُوَّان ... /
ماذا سيحدث لو أنّ أفعى
أطلّتْ علينا هنا
من مشاهد هذا السيناريو
وفحَّتْ لتبتلع الخائفَيْنِ معاً
أنا وَهُوَ ؟
يقول السيناريو :
أنا وَهُوَ
سنكون شريكين في قتل أَفعى
لِننجو معا
أو على حدَة ...
ولكننا لنَ نقول عبارة شُكْرٍ وتهنئة
على ما فعلنا معا
لأنّ الغريزة ، لا نحن ،
كانت تدافع عن نفسها وَحْدَها
والغريزةُ ليست لها أيديولوجيا ...
ولم نتحاورْ ،
تذكَّرْتُ فقه الحِوارات
في العَبَثَ المُشترك
عندما قالَ لي سابقا :
كل ما صار لي هو لي
وما هو لكْ
هو لي
ولكْ !
ومع الوقت ، والوقتُ رَمْلٌ ورغوةُ صابونة
كسر الصمتَ ما بيننا والملل
قال لي : ما العمل؟
قلت : لا شيء ... نستنزف الاحتمالات
قال : من أين يأتي الأمل ؟
قلت : يأتي من الجوّ
قال : ألم تنسَ أني دفنتُك في حفرة
مثل هذى ؟
فقلت له : كدْتُ أنسى لأنَّ غداً خُلَّباً
شدَّني من يدي ... ومضى متعبا
قال لي : هل تفاوضني الآن ؟
قلت : على أيّ شيء تفاوضني الآن
في هذه الحفرة القبر ؟
قال : على حصَّتي وعلى حصّتك
من سُدانا ومن قبرنا المشترك
قلت : ما الفائدةْ ؟
هرب الوقتُ منا
وشذ المصيرُ عن القاعدةْ
ههنا قاتلٌ وقتيل ينامان في حفرة واحدةْ
.. وعلي شاعر آخر أن يتابع هذا السيناريو
إلى آخرهْ